ثانياً: مجالات الوقف ومصارفه

لقد نشأ الوقف في رحاب الإسلام ومصاحبا لنشوء الدولة الإسلامية، ثم رافقها في كل مراحل وجودها يدعمها ماديا ومعنويا في أداء رسالتها الحضارية، ولقد كان المسجد النبوي أول عمل وقفي أعلنت به الدولة الإسلامية عن وجودها عمرانيا، وتطور الأمر بالوقف حتى صار مكونا من مكونات النشاط الاجتماعي في المجتمع المسلم، ثم توسع في التطبيقات بناء على بروز حاجات اجتماعية اقتضت أن يوفر لها الوقف موارد مالية دائمة وثابتة، فالدارس للوقف في الحضارة الإسلامية على امتداد العصور الماضية يعجب من التنوع الكبير في مصارف الأوقاف، فكان هناك تلمس حقيقي لمواطن الحاجة في المجتمع لتسد هذه الحاجة من مصارف خلال الأوقاف.

إن الوقف من حيث بعده الاجتماعي يبرهن على الحس التراحمي الذي يمتلكه المسلم ويترجمه بشكل عملي في تفاعله مع هموم مجتمعه الكبير ويبدو هذا جلياً في رصد التطور النوعي للوقف على امتداد القرون الأربعة عشر، بل هناك من يرى أن الدول الإسلامية على مر العصور كانت تكتفي بالحد الأدنى من دور الدولة وهو بسط الأمن في الداخل وتكريس الجيش لتوسيع الدولة في حالة القوة والدفاع عنها في حالة الضعف، بينما تترك الأنشطة الاقتصادية والتجارية والاجتماعية والثقافية للمبادرات الفردية وبالتحديد للمؤسسات الوقفية.

وبداية يمكن القول: إن المسجد أهم الأوقاف التي اعتنى بها المسلمون، بل هو أول وقف في الإسلام، كما هو معلوم في قصة بناء مسجد قباء، أول مقدم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، ولعل من أبرز شواهد اهتمام المسلمين بذلك الجانب في

الوقف: الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، والجـامع الأزهـر بالقـاهرة، والمسجد الأموي بدمشق، والقرويين بالمغرب، والزيتونة بتونس وغيرها كثير، ثم يأتي في المرتبة الثانية من حيث الكثرة العددية والأهمية النوعية المدارس والمكتبات، فلقد بلغـت الآلاف على امتداد العالم الإسلامي زمانا ومكانا، وكان لها أثر واضح في نـشر العلـم ورفع مستوى المعرفة بين المسلمين.

وقد أدى توافد طلاب العلم من جميع أنحاء العالم إلى مراكز الحضارة الإسـلامية والعواصم الإسلامية إلى إنشاء الخانات الوقفية التي تؤويهم، إلى جانب تهيئـة الطـرق، وإقامة السقايات والأسبلة في هذه الطرق للمسافرين، وكذا دوابهم. وصـاحب ذلـك ظهور (البيمارستانات) في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، إضافة إلى إنشاء الأربطـة ودور للطلاب الغرباء لإيوائهم وتهيئة الجو المناسب لطلب العلم، واستتبع ذلك ظهور أوقـاف للصرف على هؤلاء الطلاب باعتبارهم من طلاب العلم المستحقين للمـساعدة في دار الغربة. ولا تخلو كل هذه المراحل والأنواع من جوانب اجتماعية للوقف لهـا دلالتـها وأهميتها وأثرها في المجتمع بشكل عام.

إلا أن الدور الفاعل للوقف في المجال الاجتماعي يتمثل في مظاهر عدة فقد كـان الواقفون – في الغالب – يتنافسون في ابتكار أغراض من مصارف الوقف لمن يحتاجهـا، ولم يتوقف الأمر على الإنسان فحسب، بل بلغ الأمر حتى إلى البيئة والحيوان فقد كـان هناك أشكال عديدة من الأوقاف ذات المماسة المباشرة لحاجة المجتمـع وفـق ظروفـه والمرحلة الحضارية التي يعيشها، فوجدت أوقاف لصيانة الترع والأنهار ومجـاري الميـاه، وإقامة الجسور عليها، وأوقاف لطيور الحرمين الشريفين، وأوقـاف لإطعـام الطيـور والعصافير في مدن عديدة من العالم الإسلامي، وأوقـاف للقطـط الـضالة وأوقـاف للحيوانات الأهلية الهرمة أو المعتوهة، ويمكن إجمال مصارف الوقف قـديما في المجـالات الآتية:((الأسرى، الأطباء، الأقارب، الأولاد، الأيتام، أبناء الـسبيل،أتباع المـذاهب،

إعمار الأوقاف، البر، البريد، البلاد المقدسة، التزويج، الثغور، الجيش، الضعفاء، العلماء، الفقراء والمساكين، المدارس الشرعية، المساجد، المسلمون، المستشفيات، المقابر، الموالي، أعلى ت وذوي الأقدار، أهل الحديث، تأليف الكتب، تعليم القران، الحجر الـ صحي، دور الضيافة، رصف الطرق وتعديلها، سقاية الماء، سقي الحجـ يج، إسـ كان الحجـ يج وإطعامهم، طرق الحج، طلاب الأدب، العاجزون عن الحج، في سـ بيل الله، المحـ اويج والأرامل، مدارس الطب، المراصد الفلكية، المساجين الجيران، وقف الكتب وغيرها على الجوامع)) [1]. ، مع ملاحظة أنه يوجد عدد من مصارف الأوقاف التي وجهها أصـ حابها إلى مجالات بدعية أبان سيادة الجهل العقدي في بعض الأزمنة والأمكنة.

ويمكن أن تُعْدُ مثل هذه الممارسات في تحديد مصارف الأوقاف – غير المـ صارف المخالفة للشرع – تلبية فورية لحاجة من حاجات المجتمع وأفراده وفق المرحلة الحضارية التي يعيشها ووفق الظرف الاجتماعي الذي نشاء فيه الوقف، وحددت مصارفه، وعلى الرغم من كثرة الأوقاف وتعدد صورها وأنواعها ومصارفها، إلا أنـ ه يمكـ ن تـ صنيف الأوقاف وفق مردودها على المستفيدين منها أو بناءا على مصارفها التي حددها الواقفون إلى الأصناف الثلاثة الآتية وهي مرتبة بحسب غلبتها وكثرتها على النحو الآتي:

أ- وقف ديني وثقافي يراد منه أن يسند وظائف المؤسسات الدينية كـ الوقف على الحرمين الشريفين والمساجد عموما، أو الوظائف العلمية كالمـ دارس والمعاهد التعليمية والتدريبية والمكتبات، وهذا النوع من الأوقـ اف هـ و الأظهر على مستوى العالم الإسلامي زمانا ومكانا.

ب- وقف اجتماعي يوفر أرصدة مالية للقيام بوظائف اجتماعيـ ة وحـ ضارية عديدة ومن ذلك رعاية الأيتام والغرباء والمرضى وأبناء السبيل والمحتاجين

(١) حمد بن إبراهيم الحيدري، مرجع سابق، ص٨٧٦. .

وعلاجهم ورعايتهم طبيا بمختلف مستوياتهم وأنواعهم، وغيرها من سـ ـد الحاجات التي يحتاجها كل مجتمع وفق المرحلة التي يعيشها.

ت- وقف أهلي يراد منه توفير دخل ثابت لقرابة الواقف ولذريتـ ـه خـ ـصوصا وهذا النوع من الأوقاف هو الأقل، وهناك العديد من الدول المعاصرة التي منعت هذا النوع من الأوقاف.

ومن خلال هذه الأقسام الثلاثة تفنن الواقفون في تحديد مصارف أوقافهم وفـ ـق الاحتياجات التي كانت تماس متطلبات الحياة في المجتمع أو جوانب تكميلية لا غنى عنها فمثلا نجد أوقاف خصصت مصارفها للعلـ ـم وطلبـ ـة العلـ ـم والمـ ـدارس والجامعـ ـات ومستلزمات التعليم وأدواته وهي الأظهر على مر التاريخ الإسلامي [1]، ولا يخفـ ـى أن هذا عائد إلى احتفاء الإسلام بالعلم وأهله، وهناك أوقاف خصصت مصارفها للجانـ ـب الصحي والمدارس الطبية المتخصصة وإنشاء (البيمارستانات) (المستشفيات) وكانت تغطي مساحة كبيرة من احتياجات المجتمع على امتداد الحضارة الإسلامية مثل: البيمارسـ ـتان العضدي ببغداد، والبيمارستان النوري في دمشق، والبيمارستان المنصوري في القـ ـاهرة، وبيمارستان مراكش، والبيمارستان المقتدري، وأوقاف خصصت مصارفها لاحتياجـ ـات المجتمع المحلي ووفق ما يمرّ به من ظروف سياسية مثل فداء الأسرى [2]، أو بنـ ـاء علـ ـى احتياجات محلية مثل بناء الجسور وصيانتها في البلدان التي تحتاج لذلك كما في بلـ ـدان البلقان وما حولها من الدول الإسلامية.

والأكثر غرابة من ذلك ما يذكره (عبد الرزاق قسوم) من أنه (وجد أوقافا في

(١) محمّد بن احمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢هـ .، ص١٧٩ وما بعدها.

(٢) خالد بن عبد الكريم البكر، فك الأسرى الأندلسيين من دار الحرب، مجلة الدرعية، السنة الثامنة، العدد ٢٩، الرياض، ١٤٢٦هـ .، ص١٣٣-١٥٨.

الجنوب الجزائري لمن يحمي الناس من أذى الحشرات السامة، كالعقارب، والأفاعي، فيخصص منحا لكل من يقتل عقربا أو أفعى، لما في ذلك من كف لأذاها عن الناس، كذلك تطعيم الكلاب الضالة، بمال الوقف حتى لا تصاب بداء الكلب، وشراء الأدوية لمكافحة بعض الحيوانات الضارة، كالجراد، والقمل، وفي كل هذا سبيل خير، يعود على الإنسان والمجتمع بالخير العميم) [1].

ويمكن القول أن الأظهر من مصارف الوقف الاجتماعية يتمثل في الأربطة، وهي الأماكن التي تمّ إعدادها على الثغور للمجاهدين وصد هجمات الأعداء إلا أنها تحولت مع الوقت هي والخانقات والتكايا والزوايا إلى أماكن للمتفرغين للعبادة من الجنسين وإن كانت للذكور أظهر وأكثر، فكان ينقطع فيها من يرغب التفرغ للعبادة، ويجري عليها الواقفون الجرايات اليومية من غذاء وكساء، وهذا النوع من الأوقاف ينتشر بشكل كبير جداً في مدن وقرى العالم الإسلامي، ومع مرور الوقت غدت دوراً للضيافة، تستضيف المغتربين القادمين من أنحاء العالم الإسلامي، ومن يطلع على رحلة (ابن بطوطة) فسيجد أنه ما مرّ على بلدة، أو قرية، أو مدينة في البلدان الإسلامية التي زارها في رحلته إلا ويذكر مثل هذه الأربطة والزوايا، بل كان من المستفيدين منها و سكن في بعضها، ومما يؤكد تحول هذه الأربطة عن وظيفتها الأساس التي بدأت به هو وجودها في أماكن بعيدة عن الثغور الإسلامية وحدودها الجغرافية مع الدول الأخرى التي كانت في حالة حرب معها وهي المهد الأول لظهورها.

ومع تطور الوقت تحولت بعض هذه الأربطة إلى ملاجئ مستديمة لفريق من الناس الذين يستحقون الرعاية، وخاصة أصحاب العاهات وكبار السن والعميان والمطلقات وهذا التحول التدريجي في دور الرُبط أدى بها إلى تحقيق رسالة اجتماعية أبعد

---

(١) عبد الرزاق قسوم، البعد الإنساني العام للوقف الإسلامي، مؤتمر الشارقة للوقف الإسلامي والمجتمع الدولي، الشارقة ١٤٢٦هـ ./ ٢٠٠٥م.

مما كان يُراد منها أو يتصور لها أن تصل إليه، ذلك أنها غدت مأوى للغربـ ـاء والعجـ ـزة وضعفاء المجتمع، وجميع هذه المنشآت وجدت في نظام الوقف أكبر رافـ ـد مكنـ ـها مـ ـن مواصلة رسالتها، وليس هذا فحسب، بل أظهرت على سطح المجتمع نوعية من الأفـ ـراد لهم سمات مختلفة عن غيرهم ولهم تميز استمر حتى وقتنا الحاضر. ومن المعلوم أن المنـ ـتمين إلى الصوفية هم أكثر المستفيدين منها وقد كان لها دور كبير في اتساع نطاق الـ ـصوفية وانتشارها في كثير من بلدان العالم الإسلامي، وهذا لا ينفي دورهـ ـا في نـ ـشر العلـ ـم والثقافة، ((فقد نزلها من العلماء من قام بعقد الحلقات العلمية وإلقاء الدروس، كما ألف كثير من العلماء تصانيفهم في هذه الأربطة.. وقد كانت الأوقـ ـاف المهـ ـول الـ ـرئيس للأربطة، فكانت بمثابة شريان الحياة، تحيا الأربطة وتنشط بوجود الأوقاف، وتـ ـضمحل وتموت بانقطاعها وفقدها)) [(١)].

ولازالت بعض هذه الأربطة موجودة على امتداد المـ ـدن والقـ ـرى في العـ ـالم الإسلامي ويمكن رؤية العديد منها في كل مدينة من مدن العالم الإسلامي، إلا أن الشكل الأظهر في ذلك بلا منازع مدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد قامت (سـ ـعاد بـ ـن عفيف) بحصر للأربطة في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة وانتهت إلى وجود خمـ ـسة وسبعين رباطا في مكة المكرمة [(٢)] في حين يذكر (محمّد الحصين) وجود ستة وستين رباطا في المدينة المنورة [(٣)]. ولاشك أن ذلك لا يمثل الرقم النهائي لعدة أسباب أبرزها وجـ ـود عدد من الأربطة التي لا تشرف عليها أي جهة حكومية أو خيرية، بل الإشـ ـراف فيهـ ـا

(١) حسين عبد العزيز شافعي، الأربطة في مكة المكرمة منذ البدايات حتى نهاية العصر المملوكي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٢٦ه،، ص ١٧.

(٢) سعاد عبود بن عفيف، مجتمع الرُبط: دراسة وصفية لأساليب الرعاية الاجتماعية في بيوت الفقراء بمدينة جده بالمملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، جده ١٤١٣هـ .ص٦٠.

(٣) محمّد بن عبد الرحمن الحصين، دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة المنـ ـورة، مجلة جامعة الملك سعود (العمارة والتخطيط)، م ٩، جامعة الملك سعود، ١٤١٧هـ .، الرياض، ص٩٣.

لأصحابها أو أنها لم تسجل رسميا، فضلا عن تجدد الوقوف بعد هذه الإحصاءات، ولع ل من ابرز الشواهد على كثرتها وتزايد أثرها الاجتماعي في منطقة الحرمين هو صدور نظام خاص بها في المملكة العربية السعودية عام (١٣٥٢هـ . / ١٩٣٣م) أي منذ أكثر م ن سبعين عاماً ويحوي قرابة ثلاثين مادة تنظم عملها وطرق الإفادة منها.

ولقد أصبحت بعض هذه الأربطة مأوى للعديـ ـد م ـن العجـ ـزة، والمرضـ ـى، والمعاقين، وكبار السن وأحياناً العاطلين. وهذا ما أظهرته الدراسة التي قامت بها الجهـ ـة المختصة عن الأربطة في منطقة مكة المكرمة، ومنطقة المدينة المنورة. وشملت الدراسة قرابة (٧٠) رباطا في المنطقتين [١].

وبكل حال لا يمكن التغاضي عن دور بعض الواقفين في ترسيخ العديـ ـد م ـن التقاليد الاجتماعية المرتبطة بالمواسم الدينية البدعية، من خلال تحديد مصارف أوقـ ـافهم لهذه المواسم البدعية، مثل الاحتفال بالمولد وعاشوراء وليلة النصف من شعبان، وإحضار المنشدين وإيقاد الشموع وصرف المبالغ الطائلة عليها أو القراءة على القبـ ـور. وعلـ ـى الرغم من التحفظ الشرعي على هذه الأمور التي ليس لها دليل يعضدها من الكتـ ـاب أو السنة المطهرة، إلا أن الواقفين عملوا على تعزيز هذه التقاليد وترسيخها في المجتمع المسلم من خلال الشروط والمصارف التي كانوا يثبتونها في حججهم الوقفية وتحبيس الأعيـ ـان عليها، ونظراً لكثرة الأوقاف وانتشارها في العصور الماضية فإن ((بعض هذه التقاليد ما زالت باقية حتى اليوم، وهكذا خرجت – بعض – الأوقاف عما شُرعت لـ ـه بمعناهـ ـا الإسلامي الدقيق فبعد أن كانت الأوقاف إحدى الوسائل من أجـ ـل تحقيـ ـق التـ ـضامن الاجتماعي بين أفراد المجتمع الإسلامي أصبحت الأوقاف عالة على المجتمع تبدد ثرواته في

(١) وزارة العمل والشئون الاجتماعية (وكالة الوزارة للشئون الاجتماعية)، المملكة العربية السعودية، تقرير غير منشور عن الأربطة الخيرية في منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، ١٤١٩ هـ .، ص ٣.

أمور أقل ما توصف به أنها ليست من الدين في شيء)) [1].

وبذلك يمكن القول أن الفهم غير الصحيح لمقاصد الوقف قد جعل بعض الواقفين يجتهدون في تحديد مصارف أوقافهم وهذا التحديد قد عاد ببعض الجوانب السلبية على المجتمع، ومن ذلك ظهور فئة من أفراد المجتمع استكانت وآثرت الدعة والبطالة وأصبحت عالة على المجتمع تعيش على صدقاته، وقد حدث هذا حينما توسع الواقفون في جعل الرُبط والزوايا والتكايا والخوانق باسم التفرغ للعبادة. نعم لو كانت تؤدي هذه الأربطة والزوايا رسالتها في أساس نشأتها وهي الدفاع عن الثغور ثُمَّ إيواء الغرباء وطلبة العلم، كما وصف الرحالة ابن جبير ذلك بقوله : ((إن هؤلاء الطلبة قد استصحبوا الدعة والعافية، وتفرغوا لما هم بشأنه من عبادة ربهم وطلبهم للعلم ووجدوا في ذلك كل معين على الخير الذي هم بسبيله)) [2]. ولكنها في العصور الأخيرة انحرفت عن هدفها الأصلي، وساعدت على تنامي تيار التصوف في العالم الإسلامي، وهذا أثر عقدي ليس المجال هنا للحديث عنه، ولكن الحديث عن روح الاستكانة والتذلل والبطالة، ((والانصراف إلى الحياة اللاهية الخاملة... نتيجة اعتماد الكثيرين على الأوقاف ولاسيما المقيمين منهم بالخانقاوات والرُبط والقباب)) [3]. وكان هذا نتيجة لصرف الأوقاف عن هدفها الأساس ووظيفتها السامية. وهذا ما أكدته الدراسة التي أُعدت عن الأربطة بمنطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد وجد قرابة النصف من سكانها يعتمدون على المساعدات فحسب رغم قدرتهم على العمل وتنامى لديهم وذريتهم روح الاستكانة وذل السؤال والبطالة، فضلاً عن المشاكل الأمنية [4].

---

(١) محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣) دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٤٠، وكذلك: ص٢٩٣.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص٢٧.

(٣) محمد أمين، مرجع سابق، ص٢٢٢، وكذلك: ص٢٨٦.

(٤) وزارة العمل والشئون الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٣.

كما ساد في مناطق أخرى من العالم الإسلامي أوقاف موقوفة على قراءة القرآن للأولياء فيذكر (إسماعيل بن علي الأكوع) أن كثيراً من الأوقاف في المخاليف الشمالي من اليمن محبسة على قراءة القران في مساجد معينة مشهورة لها في نفوس سكان المناطق التي تقع فيها نوع من القداسة! ، بينما نجد غالب أوقاف المخاليف الجنوبية من اليمن وكذلك تهامة ومخلاف حضرموت على قراء القرآن للأولياء والصالحين [1]. وهناك مناطق أخرى من العالم الإسلامي اتجهت مصارف أوقافها لإقامة ذكريات النبي صلى الله عليه وسلم مع الإطعام في تلك المناسبات، وإقامة حسينيات واحتفال يُقام لإحياء مناسبة يوم الغ ـدير، وقراءة القران بشكل يومي مدى الحياة لتثويبه للواقف، أو في عبادة أبدية مثل تخصيص من يقوم بأداء الصلوات الخمس للواقف كل يوم مدى الحياة [2].

وإضافة إلى هذا فهناك في مناطق أخرى من العالم الإسلامي – وإن كان الأظهر في بلدان الجزيرة العربية – من اتجهت مصارف أوقافهم إلى مجالات شملت احتياج ـات المجتمع في وقتها، وكانت تتناسب والظروف المالية التي تمر بها المنطقة قبل التحسن الم ـالي لاقتصاد الجزيرة العربية عموما، المملكة العربية السعودية خصوصا في بداية نشأتها فكان هناك أوقاف خاصة على الحرمين الشريفين أو أئمة المساجد ومؤذنيها، أو سراج لمسجد أو دلو لماء بئره، وحوض البئر – مسقاة –، وأوقاف لسرج المسجد والطرقات وكانت توقد بالودك وهو الشحم المذاب ثم صارت توقد بالقاز، وهذه السرج توضع في المساجد وفي سوابيط الطرق الرئيسية في البلدة وأوقاف لري الحيوانات من الم ـاء الـ ـسبيل، أو أضحية للواقف أو أداء حجة عنه، أو سقاية المواشي، أو أكف ـان الم ـوتى، أو الجه ـاد،

(١) إسماعيل بن علي الأكوع، كيف أدى الوقف دوره خلال التاريخ، في ندوة (أهمية الأوقاف الإسلامية في عالم اليوم، المجمع الملكي لبحوث الحضارات الإسلامية، لندن، ١٤١٧هـ .، ص ٢٢١.

(٢) هذه بعض نماذج من الأوقاف الجعفرية المسجلة في محكمة الأوقاف والمواريث في الأحساء – وهي الأظهر بين جميع الأوقاف المسجلة – . انظر عبد الهادي الفضلي، في الوقف الإسلامي، في ن ـدوة (أهمي ـة الأوق ـاف الإسلامية في عالم اليوم، المجمع الملكي لبحوث الحضارات الإسلامية، لندن، ١٤١٧هـ .، ص ٤٢٠.

وتفطير الصوّام في يوم معين من كل أسبوع، أو إصلاح السور الـذي يحـيط بالبلـدة والمقاصير والتي كانت تمثل أبراج الحراسة حول المدينة، وأوقاف لإعتاق العبيد والإماء، وأوقاف لشراء سم للذئاب التي كانت تهاجم أغنام القرية، وأوقاف لبيوت الغرباء وهم من يقدم إلى البلد من المسافرين والحجاج وغيرهم، وهذه البيوت موجودة في الغالـب عند كل مسجد، وأوقاف لضيوف البلدة ودوابهم، وأوقاف لإصلاح المـساعي وهـي الجسور التي توضع على مجاري الأودية والشعاب وكانت في السابق تسقف من سـيقان النخل فإذا انهارت مع طوال الزمن أصلحت من هذه الأوقاف أو ريعها، ووقف الأواني ومستلزمات المترل وأدوات الفلاحة، وأوقاف للموازين، و أوقاف يشترى بريعها لَـبِن لقبور الموتى، وأوقاف مخصصة لبناء بعض الجدر إذا انهدمت، وأوقاف مخصص لـصرف ريعه لتأبير النخل أو ما يُسمى بـالفحّال.

ومن أبرز الأمثلة الوقفية على ذلك في الجزيرة العربية بعض الوقفيات القـدوة، ومن ذلك وقفية الحاج صبيح[1] التي كُتبت عام (٧٧٤هـ .) في بلدة (أشيقر) وكانـت تسمى سابقا (عكل) أي قبل أكثر من سبع مائة عام حيث أصبحت مصدر الهـام لمـن بعدها نسج على منوالها الواقفون على مر الأجيال، وفي اعتقادي أن هـذا مـا جعـل مصارف الأوقاف تأخذ هذه النمطية طوال العقود الماضية ونصها كالآتي:

((بسم الله الرحمن الرحيم و به أستعين.. هذا ما وقف وحبس وأبد العبد الفقير إلى الله سبحانه الحاج صبيح عتيق عقبة حيطانه في عكل على بئر الغطفى، ولهن من الماء ثلاث وقعات ونصف على بئر الغطفى بحدودهن وحقوقهن أرضهن ونخلـهن ومـائهن ونمائهن وكل حق هو لهن داخل فيهن أو خارج عنهن يحدهن من الغرب سور القريـة،

(١) هو: الحاج (صبيح) عتيق عقبة بن راجح التميمي، عاش في بلدة (عكل) المعروفة حاليا بأشيقر وهي في إقليم الوشم من نجد، وقد كتبت وصيته سنة ٧٤٧هـ .، وكان هناك عادة دارجة من قبل قُضاة البلدة وهي تجديد كتابتها على رأس كل مائة سنة تقريبا لذا اشتهرت وكان لها ذلك الأثر المتتابع.

ومن الشمال البئر وطريق المسلمين ومن الشرق حويط أبا شقير ومن الجنـ ـوب الجفـ ـرة والقطيعة والأحيمري، – وقفاً حبساً مؤبداً محرماً بجميع محارم الله تعالى التي حرم بها الزنا والربا وشرب الخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق – وقفاً قائماً على أصوله جارياً على رسومه قائماً على سبيله ماضياً لأهله جائزاً لهم لا يزيده مـ ـرور الأيام والأزمنة إلا تأكيداً، ولا يكسبه تقلب الأوقات إلا تمهيداً وتأبيداً ولا يحله تطـ ـاول أمد، ولا تقادم عهد وكلما تطاول عليه زمان أبده، وكلما أتى عليه عصر جدده وأكده، لا يزال ذلك كذلك ما دامت الدنيا وأهلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خـ ـير الوارثين، وليجدد في كل عصر ذكره وتسمع الأسماع ما ذكر فيه من تجديد حكمه لينقله الخلف من السلف ولا يتعرض لإبطاله التلف، وتنقبض عنه الأطماع الكاذبة وتقصر عن تناوله الأيدي الظالمة لا يزال هذا الأمر جارياً في هذا الوقف المـ ـذكور علـ ـى شـ ـرائطه المذكورة والأحكام الموصوفة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وولي الوقف المذكور إمام الجامع وله سدس حايط ونصف سدس حايط فإن كان الإمام فيـ ـه ضعف فيساعده المصلح من آل عقبة وإن ترك الإمام الولاية وكان الولي غيره فليس لـ ـه شيء، ويبدأ الولي بعمارة الوقف وكلما يزيد في نمائه ثم ما حصل منه فيخرج منه دلـ ـو وحبلها على بئر العصامية فإن تعطلت بئر العصامية جعلت على بئر غيرها مما ينتفع بـ ـه المسلمون. وفيه أيضاً ستون صاعاً تكون لمن يموت أكفاناً ولم يخلف ما يكفنه مـ ـن أهـ ـل عكل، وأهل الفرعة وأهل شقراء، وما فضل بعد ذلك أطعمه الولي في شـ ـهر رمـ ـضان المعظم ويكون سماطاً في ليالي الجمعة وليالي الخميس وليالي الاثنين، ويفرق منـ ـه ثلاثـ ـون صاعاً على الأرامل اللاتي يستحين ويشتهين ولا حرج على من حضره في الأكـ ـل منـ ـه سواء كان غنياً أو فقيراً أو بدوياً أو حضرياً، وإن أصاب الناس مجاعة، في غـ ـير شـ ـهر رمضان أطعمه الولي في ذلك الوقت، إذا رأى الصلاح في ذلك، ولا حرج على الـ ـولي ومن حضر فيما يأكلون عند الجذاذ ولا يحل لأحد من خلق الله تعالى يؤمن بالله واليـ ـوم الآخر أن يتعرض هذا الوقف بظلم أو نقصان ولا تغيير ولا تحريف فمن فعل ذلـ ـك أو

أعان عليه بقول أو عمل أو مشورة فالله حسيبه وطليبه ومجازيه ومعاقبه ومسائله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، يوم الطامة يوم الحسرة والندامة يوم يعض الظالم على يديه يوم الواقعة يوم الآزفة يوم الراجفة يوم الحاقة يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون، يوم العرض يوم النشور يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، يوم يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وعلى المتعرض لهذا الوقف لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا ولا فرضاً ولا نفلاً وعجل الله فضيحته في الدنيا وضاعف له العذاب في الآخرة وجعله من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم...)) [1].

ومن واقع الاستقراء للعديد من الوقفيات اللاحقة لوصية الحاج صبيح يجد تأثرها بتلك الوقفية التي كتبت عام (٧٤٧هـ .) وهي أقدم وقفية تمّ العثور عليها ولاشك أن هناك قبلها الكثير وكان من ابرز تلك الوقفيات التالية لوقفية الحاج صبيح وكان تأثرها واضحا بوقفية الحاج صبيح هي وقف صقر بن قطام الأشيقري (٩٤٠هـ . .)، ووقف رميثة بن قضيب (٩٨٦هـ .)، ووصية صالح بن إبراهيم بن عيسى (١٣٠١هـ .)،

(١) عبد اللطيف بن محمّد الحميد، مجالات الأوقاف في المملكة وسبل تطويرها، ندوة (مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ .، ج ٢، ص١٦٠٥.

وامتد أثر تقليد الصياغة على مدى قرون على الرغم من التغير الذي مرت به المجتمعات وعلى الرغم من تنوع الحاجات تبعا للتغير الاقتصادي أو الحضاري أو العلمي الذي عاشته تلك المجتمعات وأفرادها، وزاد من ذلك تداولها بين بعض القضاة وكتاب الوصايا وبعض طلبة العلم، واحتفائهم بها، ولا يعني هذا أن هذه الوقفيات الشهيرة هي السبب الوحيد في تخلف الصياغات عن حاجات المجتمع ولكن من المؤكد أن أثرها كان كبيرا نظرا لتقليد الوقفيات بعضها لبعض وانتشار خبرها وتناقله بين الناس نظرا لتجديد العهد بها كل فترة فعلى سبيل المثال تمّ تجديد وقفية صبيح وإعادة كتابتها بعد دروسها أكثر من أربع مرات وكانت آخر كتابة لها في عام ١٢٩٩هـ .، وكذلك وقفية صقر بن قطام تمّ تجديدها وإعادة كتابتها على الأقل أربع مرات وكانت آخر كتابة لها في عام ١٢٩٩هـ .، والأمر نفسه مع وقفية رميثة في فترات متباعدة تصل إلى مائة أو وثلاث مائة عام في جميع الوصايا المذكورة، ولاشك أن تلك الإعادات الكتابية لها تزيدها رسوخا وقد تعطيها من الهيبة والاحترام الشيء الكثير فضلا عن حفظها من قبل الأجيال وكتاب الوصايا [1] ونسخ النُسّاخ لها ما يجعل الاقتداء بها أمرا لازما ومكمن الخلل هو تقليد الصياغة في تحديد مصارف الأوقاف الجديدة بغض النظر عن مدى حاجة المجتمع.

ومما لا يخفى أن في ذلك جمود واضح في صيغ الوقف ومصارفه وهذا أثر بدوره على اتساع الفائدة من الأوقاف ومصارفها، ولاشك أن تلك الآثار السلبية الناتجة عن جمود الصيغ الوقفية والتي توارثها الكثير من الواقفين عائد بالتأكيد إلى خلل في تحديد مصارف الوقف وليس إلى الوقف ذاته، ((وإنما هو راجع إلى الأسلوب المتبع في ذلك الوقف، مما أخرجه عن مقصده الأساسي، فلو أننا أعدنا النظر وجددنا الأساليب بما يحقق

(١) خلال إعداد البحث أستطاع الباحث بكل يسر أن يحصل أكثر من مرة على صورة لكل من وقفية (الحاج صبيح) ووقفية (رميثة بن قضيب) منسوخة يدويا ومصورة لدى عدد من كبار السن في منطقة نجد، وكانت حاضرة حين السؤال عنها بشكل شبه فوري، وفي متناول اليد.

المصلحة الشرعية من الوقف لزالت تلك العيوب)) [1]، كما أنه لا يخفى أن سبب ذلك هو عدم تلمس الحاجة الحقيقية التي يحتاجها المجتمع أو اتجاه مصرف الوقف إلى حاجات أقل أو قاصرة جدا أو ذات أثر متعدي محدود زمانا ومكانا.

وهذا الخلل في الصياغة الذي أنتج اتهام للوقف بعدم قدرته على سد احتياجات المجتمع يؤكد على ضرورة العودة بالوقف إلى دوره الفعال في المجتمعات المسلمة لجني ثماره الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل متوازن ومتكامل، وذلك من خلال آلية تتعامل مع مصارف الوقف بناء على احتياجات المجتمع ذات المنظور القريب والبعيد بحسب الإمكانات المتاحة ووفقا للرؤية الممكنة، وبخاصة في ظل تنوع الحاجات وتعددها وتباينها من بيئة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر، فضلا عن ((أن الأغراض التي نص عليها أجدادنا لا يمكن تنفيذ الكثير منها مع تطور الأزمان والأحوال والأمم.. والخشية أن بعض الناس قد يلغي الوقف نظرا لعدم إمكان تنفيذ أغراض وشروط الوقف، وهذا فيه حرمان للمنتفعين من الوقف)) [2].

وسنتناول في المبحث القادم تصور عملي لكيفية تجاوز تلك السلبيات والعودة بالوقف إلى الوضع الذي كان من خلاله يتلمس احتياجات المجتمع ويتحراها لينصرف إليها كما ينصرف ماء السيل في الأرض المجدبة ليحيها فتغدو مخضرة بإذن الله، وبخاصة في ظل الظروف الحالية التي تعيشها الدول الإسلامية والمجتمعات المسلمة تستوجب هذا الأمر ولا تحتمل التأخر فيه.

---

(١) عبد الله بن احمد الزيد، أهمية الوقف وأهدافه، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٦هـ ، ص٤٨.

(٢) عمر زهير حافظ، نماذج وقفية من القرن التاسع الهجري، ندوة (الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ ، الجزء الثاني، ص٨١٣.